"فجوة الأجيال"
بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام
خلال المرحلة (١١٧٤-١٢٢٩م)(*)

أ. د. محمد مؤنس عوض
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة الشارقة

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة، فجوة الأجيال بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام خلال المرحلة ١١٧٤–١٢٢٩م، والواقع أن لدينا عدة أمثلة لتلك الفجوة بين جيل التأسيس والأجيال التالية.

The Gab of generations among Crusades and Muslims in Syria during 1174-1229 A.D

Abstract: -

The paper deals with the gab of generations among both Crusaders and Muslims in the age of the Crusades during the period 1174-1229 A.D, we have several examples for that gab between the original generation and the forthcoming generations.

يتناول هذا البحث بالدراسة ، ما يمكن وصفه بفجوة الأجيال لدى كلٍ من الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام خلال المرحلة من ١١٧٤م إلى ١٢٢٩م .

(*)مجلة "المؤرخ المصرى عدد (٥٨) يناير ٢٠٢١.

واقع الأمر، يُقصد بالفجوة بين الأجيال ، الاختلاف في آراء جيل عن جيل آخر فيما يختص بالمعتقدات أو السياسات أو القيم، وقد لاحظ عالم الاجتماع الألماني كارل مانهايم Carl Manheim (١٨٩٣-١٨٤٧م)، أن الاختلافات بين الأجيال تكون في انتقالهم من مرحلة الشباب إلى مرحلة البلوغ[١].

لا نغفل هنا ملاحظة أنها على المستوى السياسي تعني الاختلاف بين جيل التأسيس القوي والأجيال التالية له ، وهي ظاهرة لها أبعادها المتعددة لدى الأسرات الحاكمة.

قامت الحركة الصليبية من خلال دعوة البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٩-١٠٩٩م) في نوفمبر عام ١٠٩٥م بمجمع كليرمونت Clermont بفرنسا [٢]، وبالتالي بدأت تلك المرحلة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .

تمكنت الحملة الصليبية الأولى من تحقيق نجاح بارز من خلال تكوين إمارة الرها Edessa[٣]، وأنطاكية Antioch [٤]، ومملكة بيت المقدس الصليبية Latin Kingdom of jerusalem [٥]، وإمارة طرابلس Tripoli [٦].

لقد تمكن الجيل الصليبي الأول خلال المرحلة من ١٠٩٨م إلى ١١١٨م من تكوين مملكة صليبية واضحة المعالم الجغرافية ، ويُعد الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١١٨-١١٣١م) [٧] بمثابة المؤسس الفعلي لتلك المملكة الصليبية الوليدة دون إغفال دعم كافة الصليبيين الذي أعانوه على تحقيق هذا الهدف حتى لا نقع في مأزق تفسير التاريخ من خلال دور الفرد ونغفل دور المجموع البشري المحيط به.

وتوالى الملوك الصليبيون من بعد ذلك، في صورة بلدوين الثاني Baldwin II (١١١٨-١١٣١م) [٨]، وفولك أوف أنجو Anjou Fulk (١١٣١-١١٤٣م) [٩]، وبلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٥-١١٦٣م) [١٠]، ثم أمالريك الأول Amalric I (١١٦٣-١١٧٤م) [١١]، ويُعد الملك الأخير – على نحو خاص – آخر الملوك الصليبيين الكبار، وإن عجز عن توسيع حدود المملكة صوب

مصر الفاطمية نتيجة تدخل الدولة النورية (١١٤٦-١١٧٤م) لإيقافه عن تحقيق ذلك.

لا نغفل هنا ملاحظة نجاح المسلمين في إسقاط إمارة الرها الصليبية عام ١١٤٤م بقيادة الأتابك عماد الدين زنكي [١٢]، كما فشلت الحملة الصليبية الثانية[١٣] (١١٤٧-١١٤٩م) في تحقيق أهدافها في استعادتها على الرغم من اشتراك كبار ملوك وأباطرة الغرب الأوروبي حينذاك.

لاحظ المؤرخون أنه بعد عام ١١٧٤م، ورحيل الملك أمالريك الأول، دخلت مملكة الصليبيين في مرحلة ضعف تدريجي وصل إلى ذروته بكارثة معركة حطين الحاسمة[١٤] في ٤ يوليو ١١٨٧م ، وسقوط المملكة في ٢ أكتوبر من العام المذكور في أيدي المسلمين .

يُعد المؤرخ الصليبي البارز وليم الصوري[١٥] William of Tyre أول من تنبه إلى فجوة الأجيال ، وأشار إليها بصورة واضحة ، وحاول البحث عن أسبابها على نحو ميزه عن غيره من المؤرخين الصليبيين المعاصرين، واللاحقين من خلال التفاصيل التي قدمها لنا .

لقد كان ذلك المؤرخ أقدر معاصريه على إدراك تلك الفجوة، نظرًا لتكوينه الشخصي الفريد، إذ أمضى (٢٠) عامًا في الغرب الأوروبي حيث عاصر نهضة القرن الثاني عشر [١٦]؛ وهي أهم نهضات أوروبا العصور الوسطى، ودرس هناك في إيطاليا وفرنسا العديد من العلوم والمعارف وأجاد عدة لغات ، ناهيك عن إمكاناته الشخصية بطبيعة الحال، وعندما عاد إلى مملكة الصليبيين في بلاد الشام قارن بين ما رآه في الغرب الأوروبي وأوضاع بني قومه الذين تمحور تاريخهم في ثلاثية الحرب، والتجارة ، والحج، ناهيك عن امتلاكه لروح نقدية تحليلية لذلك إتجه إلى رصد ظاهرة فجوة الأجيال بعمق مميز .

لا نغفل هنا تأثير رصده لتاريخ الصليبيين في الشرق على مدى المرحلة من عام ١٠٩٥م إلى ١١٨٦م . بكل أحداثها الصاخبة ، لذلك كان من اليسير عليه إدراك الفوارق بين إنجازات جيل متقدم لم يعاصره، وجيل آخر عاصره

وقارن بينهما.

زد على ذلك، تأثير المرحلة العمرية ذاتها التي عاش خلالها وليم الصوري، إذ كان في العقد الخامس من عمره، وإكتسب خبرة حياتية كبيرة مع السفر والارتحال واقترابه من مصادر صنع القرار الصليبي ، ولا ريب في أن كافة تلك العوامل هيأته لرصد تلك الظاهرة على نحو لم يتأت لغيره حينذاك .

واقع الأمر، تكمن أهمية إشارته من خلال كونه المؤرخ الرسمي للملكة الصليبية ، وقد امتاز بالنقد والتحليل والقدرة على استشراف المستقبل، ويكفيه توقعه سقوط تلك المملكة على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وهو الأمر الذي حدث فعلاً في ٢ أكتوبر ١١٨٧م .

لذا، علينا التعامل مع النصوص التي أوردها في كتابه : تاريخ الأعمال Histoiria Rerum وتحليلها من أجل الخروج بدلالات عن تلك المشكلة البارزة في تاريخ الصليبيين التي لم يجدوا لها حلاً من داخلهم، بل كان الحل من خارجهم من خلال طردهم من المنطقة في نهاية المطاف.

يقرر وليم الصوري ما نصه متسائلاً: «السؤال المطروح دائمًا، وبعدل تام هو لماذا قاوم آباؤنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عددًا ، قاوموا دائمًا بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ، ولماذا كانت دومًا قوة صغيرة تبيد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب، وهكذا تمجد الرب بأعمال آبائنا ، ويقابل هذا أننا نجد رجالنا في أيامنا غالبًا ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل، وفي الواقع كانت جهودهم عظيمة وغالبًا اضطروا للاستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أدنى قوة منهم»[١٧].

لقد حاول وليم الصوري البحث عن أسباب تلك الفجوة وتوصل إلى أن ذلك يرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية تمثلت في التالي على حد قوله:

أولاً: «أن أجدادنا كانوا رجالاً متدينين ويخافون الرب، وقد قام مقامهم الآن

جيل شرير، وأبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية... هؤلاء هم رجال العصر الحالي، وخاصة القاطنون في الشرق كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة ، سيقف عاجزًا أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو الاختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية أكثر من أنه يصنف تاريخًا»[١٨].

ثانيًا: رأى أن العامل التالي تمثل على حد قوله : «الرجال المبجلون الأوائل... كانوا ملتهبين باندفاع روحي نحو العقيدة على النظام العسكري وكانوا مدربين على خوض المعارك.. وعلى العكس كان أهالي الشرق قد أصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قواعد القتال وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم، ولذلك ليس غريبًا أن رجالاً مقاتلين ، وإن كانوا قلة في عددهم قد تغلبوا على أعداد كبيرة»[١٩].

ثالثًا: أما العامل الثالث فرآه على النحو التالي: «لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخاص.. لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضها بعضًا ، ونادرًا ما تحركت البواعث نفسها ، بل ثارت بالواقع ببواعث معاكسة تمامًا في مرات كثيرة هذا وأن تقاتل في المعركة ضد أعداء لهم آراء مختلفة اختلافًا شاسعًا ومصالح متضاربة كثيرًا، خصوم يرتابون ببعضهم بعضًا فيه مخاطر أقل، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لإبادتنا»[٢٠].

أضاف ذلك المؤرخ البارز: «أصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد، وتنفذ أمر رجل واحد، وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط وأن تحمل السلاح حتى على مضض لإلحاق الضرر بنا ولا يجرؤ أحد على الانغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل – بغير إفلات من تعرضه للعقوبة – أوامر سيده الأعلى، فصلاح الدين هذا ... يسيطر الآن على جميع هذه الممالك...» [٢١].

لا نغفل هنا الإشارة إلى إدراك وليم الصوري لخطورة صلاح الدين الأيوبي على مملكة بيت المقدس الصليبية ، ويكفي أن الأخير انتزع منه عبارات مديح نادرة لم يطلقها ذلك المؤرخ على الملك الصليبي أمالريك الأول Amalric I (١١٦٣-١١٧٤م) نفسه الذي طلب منه تأليف كتابه «تاريخ الأعمال»، إذ قال عنه : «رغب صلاح الدين – الذي كان نشيطًا وحذرًا دائمًا – بكل فؤاده أن يزيد مجد اسمه ويوسع حدود مملكته ، وصمم أن يتقدم إلى الشرق حيث كان تواقًا لتحقيق انتصارات أكبر»(٢٢).

كما ذكر عنه : «كان صلاح الدين صاحب النشاط الذي لا يعرف الكلل ، والذي قام دائمًا بدور قائد قوي في كل شيء»(٢٣).

في موضع آخر من تاريخ الأعمال ، أشار إلى ذلك السلطان قائلاً : «تمكن هذا السلطان العظيم من إخضاع جميع الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الفرات»(٢٤).

لاشك أن كافة العبارات المذكورة أكدت لنا الرؤية المستقبلية لذلك المؤرخ الذي حذر بني قومه وكان أشبه بزرقاء اليمامة دون جدوى وكان صوته كصوت صارخ في البرية!!

من الممكن التعليق على ما أورده ذلك المؤرخ من خلال التالي :

أولاً: أدرك وليم الصوري وجود عوامل داخلية وأخرى خارجية وراء الوضع السيئ الذي وصل إليه الصليبيون خلال تلك المرحلة على نحو أكد لنا عمق رؤيته التاريخية وقدرته على البحث عن أسباب تلك الفجوة التي أشرنا إليها من خلال سعيه نحو ما يمكن وصفه بالتاريخ المقارن Comparative History.

ثانيًا: من الملاحظ إيراده لذلك الأمر عام ١١٧٤م في أعقاب وفاة نور الدين محمود واتجاه صلاح الدين الأيوبي إلى ضم دمشق وتوحيدها مع القاهرة لأول مرة منذ عقود عديدة حيث صار الصليبيون محاصرين من الجنوب والشرق.

ثالثًا: ندرك الجانب الديني في تفسيره لفجوة الأجيال الصليبية؛ إذ رأى أن الجيل الأول كان أكثر تدينًا من الجيل الذي عاصره، وهو يعد الجيل الثالث على اعتبار أن المدة الزمنية للجيل هي ما بين (٢٥) إلى (٣٠) عامًا، وهو تعليل متوقع من جانب رئيس أساقفة صور ذو الخلفية الدينية الأصيلة .

رابعًا: أشار المؤرخ المذكور إلى الفساد المستشري في صفوف الصليبيين ، وهو أمر أكدته المصادر المعاصرة واللاحقة ، حيث وجدنا تفشي الزنا، والدعارة، والقتل والسرقة ، والرشوة بينهم [٢٥]، وهو أمر لاحظناه منذ بداية مقدم الغزاة إلى المنطقة، ويكفي وجود الحي الأحمر في مدينة عكا Acre [٢٦] الساحلية التي اعتبرت القلب الاقتصادي لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وقد اشتهر الحي المذكور بالدعارة Prostitution، ومن بعد ذلك أشار المؤرخ جاك دي فتري Jacques de Vitry (ت١٢٤٠م) إلى قيام بعض رجال الكنيسة بتأجير أماكن العبادة لأعمال الدعارة [٢٧]، وهي شهادة ليست موضع شك لأنها صادرة من مصدر تاريخي صليبي معاصر.

لاشك أن ذلك مثل تناقضًا حادًا بين المثال والواقع الصليبي، إذ صورت المصادر التاريخية الباكرة الصليبيين على أنهم جند المسيح Militia Christi الأطهار ، لكن مع بقائهم في بلاد الشام، اتضح لنا زيف ذلك الادعاء وأمام المال والجنس تساقطوا بصورة أكدتها مصادرهم أنفسهم .

لقد كان إيراد وليم الصوري لتلك المفاسد في تاريخ الصليبيين دليلاً على أن السقوط في التاريخ من الداخل قبل الخارج، وتتفاعل العوامل الداخلية مع الخارجية ، كي تصنع الشكل النهائي للانهيار .

لا نغفل أنه كتب ذلك عام ١١٧٤م، أي قبل (١٣) عامًا فقط من حدوث سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية عقب معركة حطين الحاسمة عام ١١٨٧م، ولذلك يمكن وصفه بأنه مؤرخ ما قبل الكارثة .

خامسًا: ندرك من خلال ما أورده أن من أسباب نجاح الجيل الصليبي الأول في تحقيق نجاحاته ، ما وجده من التشرذم السياسي الذي كان عليه

المسلمون ، حيث وُجدت خلافة عباسية سنية في بغداد ، وخلافة فاطمية شيعية في القاهرة ، وتصارع الجانبان على نحو أدى إلى ضعفهما ، وصارت بلاد الشام بمثابة منطقة وسطى بينهما، وقد عانت من الضعف مع تفكك دولة السلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه عام ١٠٩٢م ، الذي يُعد آخر السلاطين السلاجقة الكبار ، حيث تناثرت تلك الدولة إلى أتابكيات صغيرة متنافسة ومتناحرة أما قوله بأن المسلمين كانوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل ، ولم يعتادوا على فن الحرب ، وابتهجوا بكسلهم، فهي رؤية صليبية عدائية متعصبة ، متوقعة من المؤرخ الرسمي للمملكة الصليبية ، ويفندها شهادة مؤرخ الجستا Gesta المجهول الذي عاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م)، وقد أشاد بكفاءة السلاجقة الحربية[٢٨] في عام ١٠٩٧م مع بدايات مقدم الغزاة إلى المنطقة ووصفهم بأنهم فرسان أشداء، وقرر أنهم في حالة كونهم مسيحيين لسدنا العالم وهي شهادة مبكرة تمتدح الكفاءة العسكرية للمسلمين خلال تلك المرحلة مما يفند إدعاءات مؤرخ مملكة بيت المقدس الصليبية.

واقع الأمر، ليس في مقدورنا ، إدراك خطورة فجوة الأجيال الصليبية ، على تاريخ الغزاة في بلاد الشام ، دون إدراك عدة مشكلات واجهتهم[٢٩] وهي على نحو موجز تتمثل في التالي:

– النطاق الجغرافي الطولي المرتبط بالساحل الشامي ، خاصة بعد سقوط إمارة الرها في أيدي المسلمين عام ١١٤٤م، وقد أحاط المسلمون بالمملكة الصليبية من كافة الجهات باستثناء الجهة الغربية المطلة على البحر المتوسط، وكان عمقهم الاستراتيجي بعيدًا في الغرب الأوروبي .

أما المسلمون، فقد امتازوا بالعمق الجغرافي الاستراتيجي الذي تمثل في غربي قارة آسيا ووسطها ، لذلك كان في مقدورهم الانسحاب في حالة حدوث أية هزيمة عسكرية ، وإعادة ترتيب الصفوف مرة أخرى وهي ميزة امتازوا بها وافتقدها أعداؤهم بشدة.

لذا في مقدورنا القول أن الجغرافيا كانت تقف في صف المسلمين، خاصة عندما اتحدوا ، وتركوا الانقسام الذي جر عليهم بأسوأ العواقب ، ومن المهم هنا التأكيد دومًا على أن الجغرافيا توجه التاريخ ، وما التاريخ إلا الصراع على الجغرافيا خاصة في العصور القديمة والوسطى.

– وجود أنهار أحاطت مملكة الصليبيين، مثل النيل ، والعاصي ، والفرات[٣٠]، ودجلة، وقد كونت سهول ووديان فيضية ذات كثافات سكانية مرتفعة في وقت عانى فيه الصليبيون من مشكلة نقص العنصر البشري التي صاحبتهم طوال قرابة قرنين من الزمان ولم يجدوا لها حلاً مؤقتًا سوى إقامة القلاع الصليبية Crusader Castles.

– مشكلة مشروعية الوجود وافتقاد الأمن، إذ ظل الصليبيون بمثابة الغزاة الغرباء في نظر المسلمين ، ولم يتمكنوا من الاندماج معهم ، ولم يستتب الأمن البتة لهم بفضل المقاومة الإسلامية الشعبية الداخلية .

– الصراع بين الصليبيين الأوائل والوافدين الجدد؛ إذ رأى الفريق الأول أنه بذل دمه من أجل المشروع الصليبي، وأتى الوافدون كي يجنوا ثمارًا لم يزرعوها أصلاً .

– مشكلة الاعتماد المزمن على الغرب الأوروبي الذي اعتبر الوطن **Patria** الأصلي للمشروع الصليبي ، وقد وجد هناك الحلف الدفاعي الاستراتيجي بين الصليبيين في الشرق وذلك الغرب الذي ضمن وجودهم وتدخل خاصة عند حدوث سقوط أية إمارة صليبية أو المملكة الصليبية ذاتها وهو ما اتضح جليًا خلال أحداث[٣١] الحملتين الصليبيتين الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) ، والثالثة (١١٨٩-١١٩٢م)، وبالتالي لم يملك الغزاة إمكانية الاعتماد الذاتي على أنفسهم وكانوا تحت رحمة التغيرات السياسية في الوطن الأم للمشروع الصليبي ولذلك عندما ضعفت الروح الصليبية في الغرب الأوروبي كان لذلك أثره سلبيًا على الشرق اللاتيني .

– مشكلة تنامي حركة الجهاد الإسلامي Islamic Jihad التي جاءت ردًا

على فكرة الحرب المقدسة Bellum Sacrum أو Holy War، فنلاحظ أن الخط البياني للصليبيين مع مرور الوقت صار آخذًا في الهبوط وتصاعد الخط البياني للمسلمين مع ظهور قادة بارزين للجهاد.

أما فيما يتصل بالجانب الإسلامي، وما شاهده من فجوة الأجيال، فهو ما نلاحظه لدى الأيوبيين خلال أخريات عشرينيات القرن ١٣م .

كان صلاح الدين الأيوبي قد تمكن من إسقاط الخلافة الفاطمية عام ١١٧١م، وتم تأسيس الأسرة الأيوبية خلال الأعوام من ١١٧١م إلى ١٢٥٠م، وتوالى سلاطين الأيوبيين في صورة العادل أبو بكر[٣٢] (١١٩٣-١٢١٨م) ، ومن بعده ابنه الكامل محمد[٣٣] (١٢١٨-١٢٣٨م) الذي عاصر أحداث الحملة الصليبية الخامسة[٣٤] (١٢١٨-١٢٢١م) التي استهدفت مصر ولكن الفشل المبين كان مصيرها .

من بعد ذلك ، قدمت الحملة الصليبية السادسة التي قادها الإمبراطور الألماني فردريك الثاني[٣٥] Frederick II (١٢٢٥-١٢٥٠م)؛ وهو شخصية متميزة حيث أجاد عدة لغات ، وعرف باتساع الثقافة نظرًا لتأثره بالحضارة الإسلامية، ووصف من جانب المؤرخ متى الباريسي Mathiew de paris بأنه أعجوبة العالم Stuper Mundi، والأمر المؤكد امتلاكه لخبرة سياسية ودهاء دبلوماسي أفاده تمامًا في التعامل مع الأيوبيين حينذاك وحقق بذلك ما عجزت عن تحقيقه جيوش الصليبيين خلال الحملة الثالثة.

لقد طلب البابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١م) منه الخروج لمعاونة الصليبيين في بلاد الشام واستعادة بيت المقدس للسيادة الصليبية، لكنه ماطل وراوغ كثيرًا حتى فرضت عليه البابوية ما عُرف بالحرمان الكنسي Excommunication عام ١٢٢٧م، الذي كان بمثابة الخروج من رحمة الكنيسة ، ويعتبر قضاءً على مستقبله السياسي ، وأمام ذلك اتجه إلى المشاركة في المشروع الصليبي بدافع سياسي لمواجهة المأزق الذي وضعته فيه البابوية .

من ناحية أخرى، نجد ضرورة التعرض لأوضاع الأيوبيين خلال ذلك

الحين، ويلاحظ هنا أن العادل خلف من ورائه أبناءه الذين تبوءوا مكانة سياسية بارزة وهم : الكامل ، والمعظم ، والأشرف، ومن بعد تضامنهم في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة، نجد أن الضعف والتناحر دب فيهم لاسيما خلال عامي ١٢٢٣م، ١٢٢٤م، وقد أراد المعظم عيسى ، التوسع على حساب أقاربه ، مما أثار حفيظتي الأشرف، والكامل ، مع ملاحظة أن ذلك الحين شهد مقدم الخطر المغولي ، وزحفه على أملاك الخوارزميين وذلك عام ١٢٢٠م، وبذلك اقتربت الأخطار المغولية ، من الملك الأشرف بن العادل الأيوبي، حيث كانت أملاكه في بلاد الجزيرة الفراتية، وخلاط.

الجدير بالذكر هنا، أن من مظاهر خطورة ذلك الصراع بين أبناء البيت الأيوبي اتجاههم إلى طلب العون الخارجي، وعلى هذا الأساس طلب المعظم عيسى المعاونة من الخوارزمية، أما الكامل فإنه طلب معاونة الإمبراطور الألماني فردريك الثاني، وهكذا، فعندما أدرك ذلك السلطان الأيوبي الخطر من أخيه المعظم أرسل إلى الإمبراطور الألماني سفارة على رأسها شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف عارضًا التحالف معه وأن يقدم الألمان العون الحربي له، وفي المقابل يقدم الكامل له بيت المقدس، وفتوح السلطان صلاح الدين بالساحل(٣٦)، وحيث أن تلك السفارة وصلت إلى الإمبراطور الألماني بعد إصدار الحرمان الكنسي عليه من جانب البابا جريجوري التاسع(٣٧)؛ فقد تمسك بها ذلك الإمبراطور ؛ لإرتباطها بمستقبله السياسي ، ويلاحظ أنه أتى وبرفقته خمسمائة فارس فقط؛ أي أن الحملة المذكورة لم تكن تحمل معها ثقلاً عسكريًا كبيرًا يمكن أن يعمل له الطرف الإسلامي ألف حساب مثلما كان الأمر في الحملات الصليبية السابقة، والرقم المحدود من المحاربين المصاحبين له يؤكد إدراكه إمكانية حصوله على الهدف الذي من أجله قدم دون الاحتياج إلى المزيد منها ، وقد أتى بذلك العدد المحدود كي يوحي للمسلمين أنه قدم ليس للحرب بل للسلام.

بالفعل قدم الإمبراطور الألماني إلى مدينة عكا وذلك عام ١٢٢٨م، ولا

نغفل هنا زاوية على جانب كبير من الأهمية في صورة أن ذلك الإمبراطور الألماني عندما وصل إلى بلاد الشام كان البابا قد أرسل رسله بصورة سرية إلى بني أيوب والكامل على نحو خاص لتحريضهم على عدم تسليم القدس لذلك الإمبراطور المارق، ويعلق العلامة سعيد عاشور على ذلك قائلاً : «لا عجب في ذلك الموقف الذي اتخذته البابوية، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطور في الغرب أهم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين في الشام»[٣٨] ، ويدل على أن البابوية سعت إلى تسييس قضية القدس لصالحها وهي التي تباكت من قبل على ضياعها على أيدي المسلمين، ويلاحظ أنه عندما وصل المنطقة كانت تغيرات بالغة الأهمية قد حدثت؛ فالمعظم عيسى – العدو اللدود للكامل الذي من أجله يمم شطر الإمبراطور الألماني طالبًا عونه – مات في العام الماضي أي ١٢٢٧م، وأتى من بعده ابنه الناصر داود وهو شاب صغير عديم الخبرة، وتمكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك المعظم، واستقرت أمور البيت الأيوبي على هذا النحو .

على أية حال؛ إتجه الطرفان إلى التفاوض ، واستعمل الإمبراطور الألماني جميع السبل والحيل من أجل تحقيق اتفاق يحصل به على جميع المكاسب في قبضته حتى يضمن أن مستقبله السياسي لن يقضي عليه ذلك الحرمان الكنسي البغيض، ولجأ إلى اللين تارة ، حتى أنه أحيانًا كان يبكي ويزرف العبرات الساخنة، وإلى التلويح بالقوة العسكرية تارة أخرى؛ من أجل استعطاف الكامل الأيوبي الذي ربطت الصداقة بوشائجها بينه وبين فردريك الثاني! وأخطر ما في فردريك الثاني هذا، أنه بحكم العناصر الشرقية في شخصيته ، أوهم المسلمين أنه ما جاء من أجل تحقيق حربهم ، بل إنه زاهد في القدس، أو كما ورد لدى البعض «وما لي غرض في القدس، ولا غيره»[٣٩]، وتمكن ثعلب الدبلوماسية الألمانية من إيهام الأيوبيين بذلك، وفي النهاية استطاع انتزاع ما عرف بإتفاقية يافا عام ١٢٢٩م، وأهم نصوصها :

أولاً : أن تكون هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات ، وخمسة أشهر ،

وأربعون يومًا[٤٠].

ثانيًا : يحصل الصليبيون على بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، وتبنين ، وصيدا ، وجمع القرى على الطريق من عكا إلى بيت المقدس، ومن عكا إلى يافا وكذلك أرض تبنين وملحقاتهم بالإضافة إلى صيدا ، وقيسارية ، ويمكن للإمبراطور تحصينها[٤١] .

ثالثًا : اشترط الصلح أن تكون بيت المقدس على ما هي عليه ، ولا يتم تجديد سورها وأن يضع المسلمون أيديهم على الصخرة، والمسجد الأقصى، وتقام الشعائر الإسلامية فيه [٤٢].

يلاحظ أن ذلك الاتفاق أثار غضب كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء ؛ فبالنسبة إلى الأولين نجد أن إعطاء بيت المقدس على هذا النحو للصليبيين، وهي مدينة ذات قداسة خاصة لديهم؛ حيث إنها أولى القبلتين وبها المسجد الأقصى وارتبطت بحادثة الإسراء والمعراج؛ كل ذلك أثار المسلمين لاسيما في بلاد الشام ضد الكامل الأيوبي، ووفق نص المقريزي : «اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار». أما في دمشق، فقد أخذ العزاء في فقدان المدينة المقدسة، وألقى المؤرخ سبط بن الجوزي خطبة عصماء هاجم فيها الكامل الأيوبي والاتفاق مع الإمبراطور الألماني هجومًا عنيفًا .

أما بالنسبة إلى الصليبيين ؛ فنجد أنهم لم يوافقوا على ذلك الاتفاق ، وقد أظهر مقدم الاستبارية ، ومقدم الداوية عدم رغبتهما في العمل تحت لواء الإمبراطور الألماني[٤٣]، وقد غضب الداوية عليه بسبب أنه سمح للمسالمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى وكان مركزًا لهم[٤٤]، وبصفة عامة نظر مقدمو الهيئات الدينية الحربية الصليبية – باستثناء التيوتون بالطبع – إلى إتفاقية يافا على أنها بلا قيمة ما دام الإمبراطور قد طرده البابا من رحمة الكنيسة الكاثوليكية[٤٥].

في واقع الأمر؛ تباينت وجهات نظر المؤرخين تجاه ذلك الاتفاق ، وبصفة عامة فإن الأغلبية عارضته بشدة، غير أن هناك من أيده على اعتبار أن الكامل الأيوبي – أمام الأخطار المتعددة التي واجهته : أيوبية ، وخوارزمية ، وصليبية – رأى أن يقدم بيت المقدس للصليبيين دونما أسوار، حتى يحتفظ بمصر وهي قلب الدولة بعيدة عن الخطر ، على اعتبار أن بإمكانه متى شاء استردادها ، وعند أصحاب ذلك التوجه فإن الكامل الأيوبي رجل سياسة قدير سبق عصره، وأظهر تسامحًا في عصر التعصب، بل إنه اتجه إلى فكرة تدويل القدس في ذلك العصر[٤٦].

ويجدر بي هنا أن توضيح بعض تصورات تجاه ذلك الاتفاق ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

أولاً: من الجلي البين؛ أن الكامل الأيوبي لم تتوافر لديه الحنكة السياسية التي تجعله ندًّا للسياسي الألماني القدير فردريك الثاني، وقد ذكرت من قبل أن الوضع السياسي تغير – إلى الأفضل – بالنسبة للكامل عقب وفاة المعظم عيسى، ولم يكن هناك مبرر لتنفيذ ذلك الوعد المتسرع المتهور الذي قطعه على نفسه بتقديم القدس للإمبراطور الألماني طالما لم يساعده في مواجهة خصومه من البيت الأيوبي أساسًا، وقد أشار إلى تلك الحقيقة – كما أسلفت الحديث من قبل – العلامة سعيد عاشور في معرض تناوله لذلك الاتفاق [٤٧]، وعبر عن الفكرة ذاتها المؤرخ الكبير الراحل محمد حلمي محمد أحمد، حيث قال ما نصه: «كان من حسن حظ الكامل أن أخاه المعظم توفي ، لعل هذا يكون حافزًا له على الرجوع عن تحالفه مع فردريك الموعود بمملكة بيت المقدس، إلا أنه – للأسف الشديد – وقّع ذلك الاتفاق» [٤٨].

والدليل على عدم حنكة الكامل الأيوبي، أن أبسط قواعد اللعبة السياسية في أية مفاوضات، ألا يقوم طرف من الأطراف باللعب بجميع الأوراق مباشرة دفعة واحدة، بل يحتفظ بها ويتعامل بصورة جزئية وفق مقتضيات الحال[٤٩]، ومن الواضح أن الكامل دفع بجميع الأوراق دفعة واحدة وبصورة غير مسبوقة ، أما

الإمبراطور فردريك الثاني فكان على درجة عالية من الذكاء، وقد عبر أحد المؤرخين تعبيرًا صادقًا عن الموقف قائلاً: «إن الإمبراطور فردريك كان داهية إلى الحد الذي يستطيع به أن يحقق الكثير بالأسلوب الدبلوماسي ، من خلال صداقاته»(٥٠).

ثانيًا : عندما ننظر إلى عصر صلاح الدين الأيوبي، ولم يكن مر على اتفاقية صلح الرملة ١١٩٢م، واتفاقية يافا ١٢٢٩م، سوى سبعة وثلاثين عامًا ، نجد أن السلطان الأيوبي الكبير حارب الصليبيين بشراسة ولم يفرط في القدس أبدًا، وتعليل ذلك واضح ؛ حيث أن لها مكانتها الدينية – كما أسلفت – ثم أنها رمز خالد لقضية الجهاد الإسلامي ، أضف إلى ذلك اعتقاده أنه ليس من حقه بوصفه قائدًا لحركة الجهاد حينذاك أن يقدمها للصليبيين، ويلاحظ هنا أن وضعه القتالي كان أصعب بمراحل إذا ما قارناه مع الكامل الأيوبي، ويكفي أنه مدى الأعوام من ١١٨٧م إلى ١١٩٢م، لم يتوقف عن الصراع مع الصليبيين ، وحدثت معركة عكا المريرة على مدى عامين كاملين (١١٨٩-١١٩١م) ، ورفض تمامًا أن يحصل الصليبيون على القدس، ودل ذلك على الحنكة السياسية الحقيقية والبطولة الصادقة، وهكذا فإن الجيل الذي استشهد رجاله من أجل عودة المدينة المقدسة للمسلمين، لم يفكر للحظة في التفريط فيها، أما الجيل الذي وجد نفسه أمام المدينة المذكورة دونما مشقة فلم تكن تعنيه في قليل أو كثير، وكان من السهل عليه أن يقدمها للصليبيين دون عناء بصورة كشفت عن فجوة الأجيال في الدولة الأيوبية!!

ثالثًا: توافرت لدى الكامل الأيوبي النية لتقديم القدس على طبق من ذهب للصليبيين من قبل مقدم فردريك الثاني ، ولا أدل على ذلك مما حدث خلال أحداث الصليبية الخامسة (١٢١٨-١٢٢٢م)، وقد كرر عرضه على الصليبيين عدة مرات، على نحو أكد عدم حنكته السياسية وأنه لم يكن لديه القدرة على التعامل مع الصليبيين سياسيًا، وكل مديح توافر لدى المصادر التاريخية العربية لذلك السلطان الأيوبي ربما يكون صادقًا على صعيد السياسة الداخلية وما

أحدثه من مشاريع حضارية واستتباب الأمن؛ إلا أن السياسة الخارجية والتعامل مع الصليبيين جعلاه لا يحظى بتقدير المؤرخ المصنف.

رابعًا : قد يتم الاحتجاج بأن فتوى دينية قدمها أحد الفقهاء ، وهو القاضي ابن أبي الدم الحموي (ت١٢٤٤م) ، عكست أن هناك من أيد تلك الاتفاقية من خلال أحكام الإمام الشافعي، التي وردت في كتابه الشهير «الأم»، غير أنه مع تقديري الوافر لأصحاب ذلك التوجه فإن من المهم ملاحظة أن فقهاء السلطان في بعض الأحيان كانوا نكبة على المسلمين عندما برروا لقادتهم تصرفاتهم ولم يعارضوهم. والإحتجاج هنا بـ«ابن أبي الدم» وما أورده في مخطوطة التاريخ المظفري مردود، على إعتبار أنه ألف تاريخه في عهد السلطان الكامل، ومنطقي أنه تحول ليكون بوقًا دعائيًا لذلك السلطان، كما أنه عاش في كنف ابن أخت السلطان، وزوج ابنته وهو الملك المظفر صاحب حماة، ويعبر أحد المؤرخين عن ذلك الموقف قائلاً: «يجدر التحذير بعدم أخذ رواياته عن بني أيوب على علاتها حتى لا تضلل الدارس»[٥١]. وهكذا ينبغي ألا نغفل الرأي الآخر، الذي وجد حتى في عصر الكامل غير أنه قمعه ، ومثال ذلك أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين بن أبي زكرى قد حذره من التفريط في بيت المقدس وحقوق المسلمين، وطالبه بمحاربة صديقه الألماني، ومن ذلك قوله : «ابعد دمشق عن ابن أخيك الملك الناصر وأطلبه وأطلب أخاك الملك الأشرف وعسكر حلب ونقاتل هذا العدو؛ فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان إنه أعطي الفرنج القدس»[٥٢].

على الرغم من تلك النصيحة الصادقة التي حفظها التاريخ لإبن أبي زكرى فإن الكامل اعتقله وأرسله إلى مصر حيث سجن هناك[٥٣]. ومن المهم أن نذكر هنا أن ذلك القائد العسكري الذي عارض سلطانه اقترح عليه الحل العسكري، وهي فكرة تدل على أن ذلك كان ممكنًا لأنه – بالبداهة – لو لم يكن ممكنًا لما عرضه ذلك القائد الذي نتصور أن له خبرة قتالية ، يعتد بها بدليل وصوله إلى أن يكون أحد القادرة العسكريين الكبار للكامل ، وتصوره كان منطقيًا من خلال

قلة قوات فردريك الثاني، غير أن السلطان الذي عشق التفريط، واستمتع بالتنازلات ، رأى رؤيته التي عارضتها الجماهير الحاشدة، ومن غير المنطقي ؛ تصور أن جميع تلك الجماهير الغفيرة التي هاجمته كان يحركها الناصر داود عدو الكامل الأيوبي ! حقيقة أنه شن ضد قراره ما يوصف بحملة إعلامية[٥٤]عنيفة ، غير أنه كان محقًا تمامًا في ذلك؛ لأن اتفاق يافا كان يحتوي على التنازل عن تلك المدينة المقدسة، ومساحات شاسعة أخرى تعطي للغزاة ، ولم يكن من الممكن الوقوف دون أن يحرك ساكنًا على ما أقدم عليه الكامل الأيوبي . خاصة أن هناك من عاصر جهاد صلاح الدين الأيوبي وامتد به العمر ليعاصر التفريط في المدينة المقدسة.

خامسًا: من زاوية أخرى؛ أعارض الخلط بين التسامح والتفريط، فمن حق الكامل الأيوبي أن يتسامح مع الصليبيين بأن يسمح لهم بالحج إلى المحارم المسيحية المقدسة في أمن وأمان كاملين، أما أن يقدم لهم القدس على اعتبار أنها بلا أسوار ، وأنه متى أراد استرجاعها تمكن من ذلك فهو أمر لا يدخل ضمن باب التسامح بل التفريط، وامتهان كرامة الأمة ومقدساتها ، والتسامح في غير موضعه يظهر التهاون الذي لا مبرر له، ويلاحظ هنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي تسامح مع الصليبيين ولم يفرط؛ فقد جنبهم الفتك بهم عندما دخل القدس فاتحًا في أعقاب حطين في ٤ يوليو عام ١١٨٧م ودخلها في ٢ أكتوبر ١١٨٧م، وسمح لهم في أعقاب صلح الرملة في ٢ سبتمبر عام ١١٩٢م بالحج، غير أنه في مواقف أخرى كان حازمًا صارمًا لأن الأمر احتاج منه إلى ذلك، وحادث فرسان الإسبتارية والداوية والفتك بهم عقب حطين أمر مؤكد[٥٥]، وخير دليل على أن تسامحه الواعي كانت له حدود، وهكذا لم يفرط السلطان مؤسس الدولة الأيوبية ، وإنما الذي تكفل بذلك وقام به خير مقام وعلى نحو كامل، السلطان الكامل نفسه .

سادسًا: إن ما يمكن تصوره من أن الكامل اتجه إلى وجهة خاصة بتدويل القدس، وأن الفكرة التي اتجه إليها السلطان صلاح الدين الأيوبي من قبل

عندما وافق على مشروع زواج العادل أبو بكر من جوانا Joana شقيقة ريتشارد الأسد، فيه الكثير من تحميل الأمور أكثر مما تحتمل ، لقد كان مشروع الزواج المذكور الذي تضمن أن يحكم الزوجان القدس مناصفة حماية للسلام وتجنبًا للحرب كان مشروعًا فاشلاً من البداية؛ لعدم معقوليته بالنسبة إلى الصليبيين، ومن المتصور أنه كان مجرد مناورة من جانب الملك الإنجليزي كي يكسب بها الوقت لا أكثر ولا أقل ، وهو أمر لم يغب عن فطنة القيادة الأيوبية ولم يكن صلاح الدين الأيوبي يفكر في تدويل القدس، إن الفكرة الأخيرة فكرة حديثة للغاية من خلال الصراع العربي الصهيوني وتقديم مقترحات بتدويل القدس، وهكذا فمن الممكن القول إن تلك الفكرة لم يكن لها سابقة تاريخية في عصر الحروب الصليبية وقد اعتقد المسلمون حينذاك تمامًا – وما زالوا – أن القدس عربية إسلامية وأنها عاشت في كنف الإسلام خمسة قرون كاملة ، وتمتع غير المسلمين فيها – بصفة عامة – بالتسامح الديني الذي عجز منه الصليبيون أنفسهم عندما قدموا إلى المنطقة. وهكذا، فلم يكن أمر التدويل قائمًا حينذاك، وكيف يفكر السلطان الأيوبي صلاح الدين في ذلك الأمر وهو الذي استعادها بقوة السلاح، وهزم الصليبيين في حطين من قبل؟! إن من يفكر في التدويل من المؤكد أن لا يستند إلى قوة عسكرية تدعم موقفه ، وهكذا ظل ما فعله الكامل نسخة وحيدة للهوان لم تحدث قبل عصره، ولم تتكرر بعده لتكون الحادثة نفسها دليل إدانة في حد ذاتها!!

سابعًا: كان من الممكن أن نجد بعض – لا كل – العذر للكامل الأيوبي في حالة مواجهته لقوات ضخمة مرافقة للإمبراطور فردريك الثاني، وعجز إمكانات الأيوبيين الحربية حينذاك ، ومن ثم يفكر في مثل ذلك التفكير، غير أن ذلك الفارس الألماني قدم ومعه خمسائة فارس إلى حد تصور معه بعض المؤرخين أنه قدم في نزهة إلى المنطقة، وأمام ذلك العدد الضئيل، كان من الممكن لذلك السلطان أن يستغل نقطة الضعف لذلك الإمبراطور متمثلة في صورة قوته العسكرية ومحدوديتها ، ناهيك عن أنه يقاتل على أرض أجنبية وأن

الأيوبيين يقاتلون على أرضهم، إضافة إلى أنه ملعون من البابا وكان من الممكن الاستفادة من كل ذلك لصالح المسلمين ولصالح عدم التفريط فيما لا يفرط فيه، وبدلاً من ذلك، وجدناه يقبل التوقيع على اتفاق مهين مثل اتفاقية يافا ١٢٢٩م.

ثامنًا: أتصور أن من غير المنطقي الأخذ بتأييد عدد قليل من الفقهاء الرسميين، وإغفال البعد الشعبي الجماهيري الذي صنع تاريخ حركة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر؛ إذ أن الجماهير كانت تقف بجوار القائد الذي يعبر عن آمالها وآلامها في مواجهة الغزاة وهو ما وجدناه مع صلاح الدين الأيوبي، أما في حالة الكامل فقد رفضته الجماهير صادقة الشعور والتعبير؛ لأنها أدركت أن تضحياتها التي بذلتها على مدى العقود السابقة ذهبت أدراج الرياح على يد السلطان الكامل الذي انتزع منه ثعلب الدبلوماسية الألمانية فردريك الثاني نصرًا عزيزًا يندر مثاله دون أن يخسر أحدًا من رجاله!!

تاسعًا : من الملاحظ أن هناك اتجاهًا يتحدث عن «التسامح الأيوبي» لينطلق من ذلك إلى تصوير سلوك الكامل الأيوبي على أنه جاء من خلال تلك الزاوية التسامحية إذا جاز التعبير. غير أن هناك ناحية على جانبها من الأهمية تتمثل في طرح تساؤل وهو: لماذا يطلب من المسلمين ذلك؟ وإذا كان ذلك هو حال المسلمين حين ذاك فماذا قدم الصليبيون ليكون دليلاً على أن هناك تسامحًا متبادلاً؟ والإجابة : لا شيء؛ لأن تاريخهم مع المسلمين على مدى أعوام طويلة مضت معارك، ومذابح،، ورغبة جارفة من جانبهم في امتلاك الأرض بأي ثمن ، وفرض سيادتهم السياسية عليها ، وأخلص من ذلك إلى أن التسامح غير المدروس جيدًا ضمن الرؤية السياسية العامة لا يعد تسامحًا ، بل تهاونًا بالغًا وتنازلاً أبلغ.

وعاشرًا : قد يتصور بعض الباحثين أن ما أقدم عليه الكامل الأيوبي في اتفاقية يافا عام ١٢٢٩م، وتقديمه القدس لفردريك على هذا النحو قد تم استرداده عام ١٢٤٤م، عندما دخل الخوارزميون المدينة المقدسة وقضوا على

السيادة الصليبية بها، غير أن الأمر بذلك يكون من قبيل تهوين ما أقدم عليه الكامل، إذ إنه أقدم على ذلك عام ١٢٢٩م. ولم يكن المعاصرون الذين رفضوا في غالبيتهم الغالبية هذا الموقف يدركون إلا ضياع رمز الجهاد الإسلامي في عصر الصليبيات في صورة تلك المدينة المقدسة على نحو خاص،، ولم يكن أحد قط – وهو أمر بديهي – يدرك أنه سيتم استردادها لصالح المسلمين بعد ذلك بخمسة عشر عامًا.

ومن ناحية أخرى؛ علينا ألا نجمل أخطاء حكام المسلمين السابقين، فها هو خطأ قتَّال صحح بعد خمسة عشر عامًا، مع ملاحظة أن الذي يدفع الثمن دائمًا الشعوب التي يخذلها حكامها أحيانًا جريًا وراء ديكتاتورية ترى أنها على حق، وأن الحشود الحاشدة من المعاصرين لا يستحقون أن يلتفت إلى تصورهم على الرغم من أنهم المشاركون الفعليون في صنع تاريخ تلك المرحلة.

حادي عشر : في واقع الأمر؛ إن قضية الكامل الأيوبي واتفاقه المذكور مع فردريك الثاني تؤكد لنا الفجوة الكامنة بين الأجيال الأيوبية ورؤيتها للتعامل مع الوجود الصليبي في بلاد الشام وتحالفه الاستراتيجي مع الغرب الأوروبي، ومن الممكن تصور الأمر كالآتي: (جهاد – سياسة دفاعية – تنازل) ، وهو ترتيب متفق مع عهود كل من صلاح الدين ، ثم العادل ، ومن بعده الكامل، وأتصور أن جذور القضية بدأت مع السياسة الدفاعية للعادل والطرح متعدد المرات لتقديم القدس للصليبيين حتى خلال الحملة الصليبية الخامسة، وصولاً إلى أحداث عام ١٢٢٩م، على نحو أكد لنا سبق الإصرار والترصد من جانب الكامل في بيع القدس على هذا النحو المزري والتباين الحاد في السياسة الأيوبية من خلال تباين تلك الأجيال، ومن الواضح أن الجيل الذي قدم التنازلات لم يقدر جيل التضحيات والجهاد البارز ضد الصليبيين، وهكذا ففجوة الأجيال الأيوبية تلك تمثل واقعًا تاريخيًّا ليس من الممكن إنكاره، لأن إنكاره بمثل تلك الصورة من شأنه إبعادنا عن قلب الحقيقة التاريخية، مع تقديري الكامل لكل الآراء المخالفة.

ثاني عشر: في الواقع أتصور أن المؤرخين الأوروبيين من متى الباريسي حتى كانتروتز، لهم تصوراتهم في تقويم فردريك الثاني على أنه أعجوبة العالم وأنه سابق عصره، ولديهم مبرراتهم – من وجهة نظرهم – في ذلك التقويم، أما الكامل الأيوبي فلم يكن سابقًا على عصره في شيء ، بل كان متخلفًا بمراحل عن ذلك العصر بدليل ظاهرة «النكوص» التي ظهرت بجلاء في اتفاقية ١٢٢٩م، وفي حالة كونه سابقًا لعصره بالفعل لأقدم على ما فيه صالح أمته، وهو أمر يتأتى بالحفاظ على ما حققه الجيل الأيوبي الأول.

والتقويم الختامي لذلك السلطان أنه كان محبًا للعلم والعلماء[٥٦]، وضل طريق العلم واتجه إلى عالم السياسة ، ولم يكن السياسي الداهية ، أو الحصيف، كما لم يكن بالعسكري القدير إلا في أضيق نطاق، أما وصف ابن واصل له بأنه «خافته ملوك الأرض قاطبة»[٥٧]، فهو من قبيل الدعاية السياسية الخرقاء ، والمتصور أنه اقتحم عالم السياسة ولم تكن له مؤهلات لذلك، وقد ظهر ذلك جليًا خاصة عندما تعامل مع أحد كبار رجال عصره في أوروبا في صورة فردريك الثاني.

ثالث عشر: ليس هنا مقام عرض جميع الآراء التي أوردها قطاع بارز من المؤرخين العرب المحدثين بشأن اتفاقية يافا، وأكتفي هنا إلى جانب ما أوردته من قبل – عن رأي العلامة سعيد عاشور من قبل – بأن أذكر ما أورده المؤرخان أحمد رمضان ، وقاسم عبده قاسم ، وهما من المتخصصين في عالم الصليبيين ، يقول الأول ما نصه : «فرط الكامل وبدون قتال ولا هزيمة ودون إراقة قطرة دم واحدة في مناطق لا يحق له أن يدعي أنها ملك له بل هي ملك للمسلمين جميعًا أراقوا فيها دماءهم تحت راية عمه صلاح الدين الأيوبي في حطين وبعدها في معارك يشهد الله على عنفها وضراوتها ، ومهما ادعى الكامل من أسباب دعته إلى قبول الصلح في يافا سنة ١٢٢٩م، فإنها برمتها أسباب شخصية لا علاقة لها بالإسلام والمسلمين، وبدلاً من أن يرفع راية الجهاد بعد صلاح الدين يأتي برفع راية الاستسلام في قبوله هذه

المعاهدة»[٥٨].

أما المؤرخ الثاني، وهو قاسم عبده قاسم، فأورد ما نصه: «أما العالم الإسلامي فقد رأي – بحق – أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقة، وكان رد الفعل الشعبي عنيفًا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته ، وقد علق «ابن الأثير» على ذلك بقوله : واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه، ويسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه...» [٥٩].

هكذا، هناك شبه إجماع من المؤرخين على معارضة ما أقدم عليه الكامل الأيوبي، وقد امتدت الكتابات التي أدانت فعلته على مدى عدة قرون وكان أكثر عامل دفع المؤرخين إلى ذلك أن السلطان المذكور يعد أحد سلاطين الدولة الأيوبية التي أسسها فاتح بيت المقدس صلاح الدين الأيوبي.

واقع الأمر، تؤكد لنا إتفاقية يافا عام ١٢٢٩م على وجود فجوة أجيال أيوبية واضحة المعالم ، إذ هناك جيل التأسيس الذي مثله أفضل تمثيل صلاح الدين الأيوبي، ومن بعد رحيله بـ(٣٦) عامًا، وجدنا جيلاً آخر، لم يدرك حجم التضحيات الجسام التي تم دفعها من أجل تحرير بيت المقدس وعودتها للسيادة الإسلامية بعد (٨٨) عامًا من الاحتلال الصليبي الغاشم.

خلص البحث إلى عدة نتائج تجمل على النحو التالي :

أولاً: شهد عصر الحروب الصليبية ما يعرف «بفجوة الأجيال» سواء لدى الصليبيين أو المسلمين ، وليس في مقدورنا كمؤرخين دراسة ذلك العصر دون إدراك أسباب ودوافع والنتائج التي ترتبت على تلك الفجوة التي أكدتها المصادر المعاصرة لدى الجانبين ومنها ما أثار جدلاً واسعًا بين المؤرخين بين معارض ومؤيد.

ثانيًا : أدرك المؤرخ الصليبي البارز وليم الصوري أسباب فجوة الأجيال لدى بني قومه ، وحللها من خلال عوامل داخلية وخارجية ، وبصورة أكدت لنا

قدرته وتميزه على صعيد الكتابة التاريخية عن ذلك العصر الذي يمثل مرحلة فارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى وسعيه نحو البحث عن السببية التاريخية .

ثالثًا : هناك فارق جوهري بين ما ورد لدى الصليبيين وأعدائهم المسلمين . إذ أن قضية فجوة الأجيال أدركها المؤرخ الصليبي المشار إليه، أما بالنسبة للمسلمين، فإن الاحتجاج الشعبي العارم ضد اتفاقية يافا ١٢٢٩م ، أكد لنا أن هناك معارضة حقيقية ضد مثل تلك الاتفاقية المشبوهة ، كما أن المؤرخين المعاصرين والمحدثين شاركوا في معارضتها .

ذلك عرض عن فجوة الأجيال لدى الصليبيين والمسلمين خلال المرحلة (١١٧٤-١٢٢٩م) .

الهوامش:

(١) الموسوعة الحرة ، الوكيبيديا .

(٢) عن البابا أوربان الثاني وخطابه في كليرمونت انظر:

D.C. Munro, " The speech of Pope Urban II at Clermont, 1095", A.H.R., XI, 1905, PP. 231-242.

H.E. Cowdrey, "Pope Urban II and the Idea of Crusade:, S.M., 36, 1995, PP. 721-742.

J.N.D. Kelly, Oxford dictionary of Popes, Oxford 1996, PP. 158-160.

محمد مؤنس عوض وهنادي السيد إبراهيم، خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م)، بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠١٨م .

(٣) عن إمارة الرها الصليبية ، انظر:

عليه الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م، محمود الرويضي ، إمارة الرها الصليبية ، ط. عمان ٢٠٠٢م، (تعد دراسة المؤرخة الرائدة الراحلة عليه الجنزوري فريدة في نوعها ولا مقابل لها بالعربية أو الإنجليزية أو الفرنسية دونما مبالغة) .

(٤) عن إمارة أنطاكية الصليبية انظر :

Peter of Blois, Passio Regnaldis, P.L., 207, 1904, Cols. 957-976.

C. Cahen, La Syrie de nord à epoque des Croisades, paris 1940.

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية (١٠٩٨-١١٧١م)، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١م، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م، أميرة مصطفى يوسف ، أرناط حاكم أنطاكية والكرك من (١١٥٣-١١٨٧م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية للبنات بجدة عام ١٩٨٤م، طلب صبار الجنابي ، إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية (٤٩١-٦٦٦هـ/ ١٠٩٨-١٢٦٨م)، ط. دمشق ٢٠١٧م .

(٥) عن مملكة بيت المقدس الصليبية أنظر :

William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, Trans. E.A. Babcock and A. Krey, 2 Vols., New York 1943.

J. Prawer, the latin Kingdom of Jerusalem, European colonialism in the Middle Ages, London 1972, Id, Crusader Institutions, Oxford 1980.

(٦) عن إمارة طرابلس الصليبية أنظر :

J. Richard, La Comte de Tripolis Sous La Dynastie Toulousaine, paris 1945.

عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، نهي الجوهري ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، ط. القاهرة ٢٠٠٨م . حسين كاظم حسون، إمارة طرابلس الصليبية ٥٠٢ –٦٨٨هـ/١١٠٩–١٢٨٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد عام ٢٠٠٤م.

(٧) عن الملك بلدوين الأول انظر :

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans. Frances Rita Ryan (Sisters of St. Joseph), ed. Harold Fink, Tenneessee 1969, PP. 137-223.

H.E. Mayer, Etudes sur L Histoire de Beudouin Ier Roi de Jerusalem, in his Melanges sur L' Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, Memoire de l' Academie des inscriptions et Belles – Lettres, Paris 1984, PP. 10-91.

M. Brett, The Battles of Ramla (1099-1105), in Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras, et Urbain Verneulen and Daniel De Smet, Leuven 1995, PP. 17-39.

هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول (١١٠٠–١١١٨م/ ٤٩٤–٥١٢هـ)، ط. القاهرة ٢٠٠٨م ، أسامة زكي زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل (١١٠٠–١١٠٥م/٤٩٥–٤٩٩هت)، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، العدد (٢٩) عام ١٩٨١م ، ص٣٨–ص٤٨.

(٨) عن بلدوين الثاني أنظر :

William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, Vol. II, P. 95, P. 116.

H.E. Mayer, " The Succession to Baldwin II of Jerusalem, English impact on the East', D.O.P., 39, 1985, PP. 139-147., Id, "the concordat of Nablus', J.E.H., XXIII, 1982, PP. 531-543.

صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني (١١١٨–١١٣١م/٥١٢–٥٢٥هـ)، ط، القاهرة ٢٠٠٨م ، حسين عطية، مجلس نابلس ٢٣ يناير ١١٢٠م، وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط ، م(١) ، عام ٢٠٠٠/٢٠٠١م، ص٣٦–ص٦٩، محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في القرنين ١٢، ١٣م ، ط. القاهرة ٢٠١٥م، ص٣٦٦–٣٣٨.

(٩) عن فولك أوف أنجو، أنظر :

William of Tyre, Vol. II, PP. 491-492.

H.E. Nayer, "Studies in the History of queen Melisende", D.O.P., 29, 1972, PP. 95-182., Id, King Fulk of Jerusalem as City Lord", in Experience of Crusading, ed . P. Edbury and J. Philips, Cambridge 2003, PP. 179-188.

سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات – جامعة عين شمس عام ٢٠٠٠م، الأوضاع الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، تحرير محمد مؤنس عوض، ط. القاهرة ٢٠٠٣م ، ص١٣١-ص١٦٣.

(١٠) عن بلدوين الثالث ، أنظر :

William of Tyre, Vol. II, PP. 136-294.

H.E. Mayer, "The Wheal of Fortunes under Kings Fulk and Baldwin III of Jerusalem," S., 69, 1985, PP. 860-877.

عبد اللطيف عبد الهادي السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م)، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

(١١) عن أمالريك الأول أنظر :

William of Tyre, Vol. II, PP. 300-395.

S. Runciman, "the visit of King Amalric to Constantiople in 1171", in Outremer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, ed. H.E. Mayer, R.C. Smail, B.Z. Kedar, Jerusalem 1982, PP. 153-158.

حجازي عبد المنعم، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري ١١٦٣-١١٧٤م، القاهرة ٢٠١٤م .

(١٢) عن عماد الدين زنكي، أنظر :

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج٢، ط. بيروت ١٩٧٨م ، ص٣٢٧-ص٣٢٩.

C. Alptekin, The Reign of Zangi (521-541/1127-1146), Ataturk University, Erzarum 1978.

H. Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa", in A History of the Crusades ed. K. Setton, Vol. I Wisconsin 1989, PP. 449-462.

عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي ، ط. بيروت ١٩٨٢م .

(١٣) عن الحملة الصليبية الثانية :

Old of Deul, De Profectione Ludovici VII in Orientem, ed. and Trans. Virginia Berry, New York 1948.

William of Tyre, Vol. II, P. 169-178.

عبد السلام زيدان، الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة جنوب الوادي عام ٢٠٠٠م.

(١٤) عن معركة حطين أنظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٧٥-ص٧٩.

The Old French continuation of William of Tyre 1194-1197, in the conquest of Jerusalem and the Third crusade, Sources in translation, ed. P.W. Edbury, Hampshire 1996, PP. 158-163.

B.Z. Kedar (ed.), The Horns of Hattin, Proceedings of the Second Confrence of the Society for the study of the Crusades and the Latin East, Jerusalem and Haifa 2-6 July, 1987, Jerusalem 1992.

(وقائع مؤتمر دولي عقد في إسرائيل بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين) .

J. Man, Saladin, the life, The Legend and the Islamic Empire, London 2015, PP. 213-233.

مجموعة من الباحثين، حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، جوزيف نسيم يوسف، معركة حطين خلفياتها ودلالاتها، عالم الفكر، م(٢٠)، عام ١٩٨٩م، ص٢٣٥-ص٢٥١، يوسف سامي اليوسف، حطين ، ط. دمشق ١٩٨٨م، شوقي أبو خليل، حطين بقيادة صلاح الدين، ط. دمشق ٢٠٠٥م، مجموعة من الباحثين، حطين بمناسبة مرور ثمانية قرون على حطين، ط. دمشق ١٩٨٧م، محمد جلال كشك، لمحات من حطين ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، نور الدين حاطوم، في ذكرى معركة حطين (٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م)، وزارة الثقافة ، ط. دمشق ١٩٨٧م .

(١٥) عن وليم الصوري أنظر :

Guillaume de Tyre, Chronique, ed. R.B.C. Hugens, 2 Vols., Turnhout 1986.

P. Edbury and J.B. Rowe, William of Tyre, Historian of the Latin East, Cambridge 1988.

R.B.C. Hugens, Guillaume de Tyre, Un Chapitre, (XIX, 12) de son Histoire retrouve, Latomus 21, 1962, PP. 811-829.

محمد مؤنس عوض وهنادي السيد محمود، المؤرخ الصليبي وليم الصوري (حوالي ١١٢٧-١١٨٦م) بين رؤيتين عربية غربية بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠١٧م . محمد مؤنس عوض، النقد الاجتماعي من خلال كتابات وليم الصوري (ت١١٨٦م) وأبي شامة المقدسي (ت١٢٦٧م) – دراسة مقارنة ، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن ، ط. القاهرة ٢٠١٠م ، ص١١٩-ص١٣٦، جمال الدين الزنكي ، المؤرخ وليم الصوري في ميزان النقد التاريخي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٨٥) ، السنة (٢٢)، شتاء ٢٠٠٤م، ص٤١-ص٩٠.

(١٦) عن نهضة القرن الثاني عشر م في الغرب الأوروبي، أنظر :

C.H. Haskins, The Renaissance of the Twelfth century, Cambridge 1928.

(لا تزال دراسة هاسكنز الرائدة على جانب كبير من الأهمية على الرغم من مرور ما زاد على تسعة عقود من صدورها) .

(١٧) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ت. سهيل زكار، ج٢، ط. دمشق ١٩٩٠م ، ص٩٨٠.

(١٨) نفسه، ص٩٧٩، ص٩٨٠.

(١٩) نفسه، ص٩٨٠.

(٢٠) نفسه، نفس الصفحة.

(٢١) نفسه، ص٩٨١.

(٢٢) نفسه، ص١٠٤٨.

(٢٣) نفسه، ص١٠٥٧.

(٢٤) نفسه، نفس الصفحة.

(٢٥) عن تلك الجرائم وتفشيها في المجتمع الصليبي ، أنظر:

العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط. القاهرة ب-ت، ص١٧٠،

مجهول، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين الأيوبي وريتشارد ، ت. حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

J. Brundage, Prostitution, Miscegenation and Sexual purity in the first crusade, in Crusade and settlement, ed. Peter Edbury, Cardiff 1985, PP. 57-72.

أحمد عبد الله أحمد، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في الفترة ٦-٧هـ/١٢، ١٣م، ط. القاهرة ٢٠١٥م، إمام الشافعي حمودي وأشرف صالح محمد،، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م/٤٨٩-٦٩٠هـ، صورة الآخر الفرنجي، ط. القاهرة ٢٠١٧م، حسن عبد الوهاب ، الرشوة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس ١٠٩٥-١٨٧م/٤٨٨-٥٨٣هـ، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ط. الإسكندرية ١٩٩٧م، ص٩٣-ص١٥٤.

(٢٦) يوشع براور، عالم الصليبيين ، ت. قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٢٢١.

(27) Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. II, London 1896, P. 64.

(٢٨) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٥٨م . ص٤٢.

R. Hill, "the Christian View of the Muslims at the time of the First crusade", in the Eastern Mediterranean lands in the period of the Crusades ed. P. M. Holt, London 1977, P.2.

محمد مؤنس عوض، تاريخ الصليبيات الصراع العالمي في العصور الوسطى، ط. القاهرة ٢٠١٠م ، ص٨٩.

(٢٩) عن تلك المشكلات أنظر هذه الدراسة :

محمد مؤنس عوض ، المشكلات التي واجهت الصليبيين في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، وإنعكاسها على الصراع العربي – الإسرائيلي، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات في الجغرافيا والتاريخ، ط. القاهرة ٢٠١٦م، ص٥٩-ص١١٩ (حيث تناولتها بصورة مفصلة).

(٣٠) عن ذلك ، انظر:

محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية صراح البحر والنهر، بحوث ودراسات، ط. دمشق ٢٠٢٠م، ص٩-ص٣٦.

(٣١) عن الحملة الصليبية الثالثة ، أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق أحمد أيبش، ط. دمشق ٢٠٠٩م، ص١٩٩.

Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion, Trans .

M.J. Hubert, New York 1943.

Otto of Freising, The deeds of Frederick Barbarossa, Trans. Charles Christopher Mierow, Toronto 1966.

Otto of St. Blasion, The Third Crusade 1187-1190, From the Chronicle of Otto of St. Blasion, in J. Thatcher Source Book of Medieral History, New York 1905, PP. 529-535.

Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of the Crusades, London 1908.

Geoffrey of Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of the Crusades, London 1908.

Chronicle of the Third Crusade , Atranslation of Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, trans. Helen Nicholson, London 1997.

جيمس رستون الإبن، مقاتلون في سبيل الله: صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة، ت. رضوان السيد، ط. الرياض، ٢٠٠٢. جلال حسني سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ط. نابلس – فلسطين ١٩٩٨م ، حامد غانم زيان، الإمبراطور فردريك باربا روسا والحملة الصليبية الثالثة، ط. القاهرة ١٩٩٧م .

(٣٢) عن العادل أبو بكر ، أنظر :

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج٧، ط. بيروت ١٩٧٨، ص١٩٧–ص٢٠١، عباس إسماعيل حلمي، السياسة الداخلية للسلطان الملك العادل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٤٣م، محمود الحويري، العادل الأيوبي صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، ط، القاهرة ١٩٨٠م (أفضل دراسة بالعربية في موضوعها بعد (٤٠) عامًا من صدورها) . وليد هادي العيساوي، الملك العادل سيف الدين أبو بكر وجهوده في بناء الدولة الأيوبية ٥٦٩–٦١٥هـ/١١٧٤–١٢١٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت عام ٢٠١٦م.

(٣٣) عن الكامل محمد، أنظر :

ابن خلكان، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس، ج١، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص١٨٤–ص١٨٦، ذكرى عزيز الصائغ ، عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الموصل عام ١٩٨٨م ، إبراهيم ياسين الخطيب، الملك الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي ٥١٦هـ/١٢١٨م–٦٣٥هـ/١٢٣٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف عام ١٩٩٨م.

H. Gottschalk, Al Malik al- Kamil Von Aegypten und Seine Zeit, Wiesbaden 1958.

(٣٤) عن الحملة الصليبية الخامسة انظر :

Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta, Trans. Cavigan, Philadelphia 1948.

Gesta Obsidions Damiate, in quinti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinold Rohricht, Genevae 1879, PP. 74-115.

Johannes de Tulbia de Domino Johanne Rege Jerusalem in qinti Belli Sacri Scriptores, PP. 119-140.

Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate Exacti, in quinti Belli Sacri Scriptores, PP. 143-166.

Fragmentum de Captione Damiate, in quinti Belli Sacri Scriptores, PP. 169-201.

محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة حنا دي برين على مصر ١٢١٨–١٢٢١م/٦١٥–٦١٨هـ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م. (أفضل دراسة بالعربية في موضوعها).

T.C.Van Cleve, The Fifth Crusade, in A History of the Crusades, ed. K. Setton, Vol. II, Madison 1969, PP. 429-462.

J.M. Powell, Anatomy of a crusade 1213-1221, Philadelphia 1986.

(٣٥) عن الإمبراطور فردريك الثاني، أنظر :

Philip de Novare, The Wars of Frederick II against the Iblins in Syria and Cyprus, Trans J. La Mante, Columbia 1935.

جون لي ميج، حملة الإمبراطور فردريك الثاني، رواية سجين عموري دي ميمار الموقوف في قلعة سيرينا ، ت. سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج(٢٥)، ط. دمشق ١٩٩٥م .

P. Wiegler, the infidel imperator and his struggle against the pope, Trans B.W. Downs, London 1930.

E. Kantorowicz, Frederick the Second, London 1931.

(لا تزال دراسة كانتروبتز مهمة على الرغم من مرور (٩٠) عامًا على صدورها).

D. Abulafia, Frederick II, A medieval Emperor, London 1988.

B. Mechin, Frederic II de Hohenstauffen, Paris 1983.
P. Boulle, L' Etrange Croisade de L' Empereur Frederic II, Paris 1968.

جوزيف جاديس، الزنديق الأعظم، ت. أحمد نجيب هاشم، ط. القاهرة ب–ت، عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي (١١٥٢–١٢٥٠م/٥٤٧–٦٤٨هـ)، ط. القاهرة ١٩٨٩م ، محمد عبد العزيز، حملة فردريك الثاني الصليبية في بلاد الشام ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة بيروت العربية عام ١٩٨٤م، أمين توفيق الطيبي ، السياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ط. بني غازي ١٩٩٠م، ص٤١–ص٦٥، الإمبراطور فردريك الثاني أعجوبة العالم، ضمن نفس الكتاب ، ص٢٥١–ص٢٧٠، إيمان عبد السلام العريان، الدبلوماسية في العلاقات بين الإمبراطور فريدريك الثاني والأيوبيين وانعكاسها على الشرق اللاتيني ١٢١٥–١٢٥٠م/٦١٢–٦٤٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمنهور عام ٢٠١٨م، محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية ، ص٤٢٩–ص٤٣١، ريمون ستانبولي ، مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر (١٢٠٠–١٢٥٠)، ت. عايدة الباجوري ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٠٣–ص٢٢٤.

(٣٦) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج١، ط. القاهرة ، ص٢٢١–ص٢٢٣.

(٣٧) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٨م ، ص١٩٠(تبنى المؤرخ الفاضل الراحل فكرة الدفاع عن السلطان الكامل الأيوبي ، وقد اختلفت معه في الرأي) .

(٣٨) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت ب–ت، ص٩٦–ص٩٧.

(٣٩) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص١٩٢.

(٤٠) إبن العميد، تاريخ الأيوبيين ، تحقيق كلود كاهن، في مجلة الدراسات الشرقية م(١٥) عام ١٩٥٥–١٩٥٧م. ص١٣٨.

B.E.O., T.XV, Année 1955-1957.

(٤١) عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي ١١٥٢-١٢٥٠م/٥٤٧-٦٤٨هـ، ص٢٩٢.

ومن خلال هذا البند الذي أورده المؤرخ المتخصص في نشاط فردريك الثاني في بلاد الشام ، ندرك حجم ما ناله ذلك الإمبراطور ، ونتساءل : ما الذي لم يحصل عليه فردريك في ذلك الاتفاق مع الكامل؟، وانظر أيضًا ما ذكره ابن العميد، تاريخ الأيوبيين ، ص١٣٧-ص١٣٨، وحتى تتضح الصورة ، نورد كيف دخلت تبنين الصلح ، فيقرر ابن العميد ما نصه : «إن الأنبروز (أي الإمبراطور) طلب من السلطان تبنين وأعمالها بحكم أن صاحبتها بنت الهنفري دخلت عليه وسألته فيها ، فأنعم السلطان عليه بها. ودخلت نسخة المهادنة التي بينهما »، تاريخ الأيوبيين ، ص١٣٨، ومن المنطقي أن نتصور أن الكامل كان يتعامل مع أملاك المسلمين على أنها ضيعة شخصية يحق له التعامل والتصرف فيها كما يشاء.

(٤٢) وعن اتفاقية يافا ، أنظر :

ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين ربيع ، ج٤، ط. بيروت ب-ت، ص٢٤١-ص٢٤٣، ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ج٣، ص. دمشق ١٩٦٨م، ص٢٠٥، ابن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، ط. دمشق ١٩٨٢م ، ص١٧٦، ابن أيبك الدواداري، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٢٩٢، نظير حسان سعداوي ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص٩٦-٩٧.

Van Cleve, The Crusade of Frederick II, P. 455.

(43) E.J. King, The Knights Hosptallers in the Holy land, London 1931, P. 206.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج٢، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٢٣.

(44) J. Riley-Smith, Feudal Nobility in the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, P. 170.

(٤٥) سعيد عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، مجلة الجمعية المصرية

للدراسات التاريخية، العدد (١١) عام ١٩٦٣م ، ص٢٠٩.

(٤٦) يلاحظ أن فكرة الدفاع عن الكامل الأيوبي لدى الباحثين العرب قد ظهرت جلية عندما أعد المؤرخ البارز عادل عبد الحافظ أطروحته للماجستير بعنوان: العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي ١١٥٢-١٢٥٠م/٥٤٧-٦٤٨هـ، وذلك عام ١٩٨٦م، ونشرها بالقاهرة عام ١٩٨٩م، وبذلك يعد التوجه المذكور وليد تلك المرحلة الزمنية ، أي قبل صدور كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية عام ١٩٩٨م ، حيث دافع مؤلفه عن السلطان الكامل واتفاقية يافا.

(٤٧) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٢٠١.

(٤٨) محمد حلمي محمد، مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص٢٠٧.

(٤٩) عن ذلك انظر:

سيف السيف ، التفاوض فن الممكن، ط. الرياض ١٩٩٦م .

(٥٠) عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية ، ص٢٩٠.

(٥١) انظر التحليل الممتاز الذي قام به المؤرخ البارز علي عودة الغامدي في دراسته القيمة : علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ٥٨٩-٦٥٧هـ/١١٩٣-١٢٥٩م، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م، ص٢٦٨، حاشية (١).

(٥٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج٢، ط. دمشق ١٩٥٦م ، ص٢٢٤، علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٦٩.

(٥٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٢٤.

(٥٤) من ذلك ما قام به المؤرخ سبط بن الجوزي عندما خطب في الجامع الأموي، وتناول فضائل بيت المقدس وبشع القول في هذا الفعل، على حد تعبير المقريزي ، وقد حضر ذلك المجلس جمع لا يحصى من الناس واشتد صراخهم وبكاؤهم ، وأنشد قصيدة من ثلاثمائة بيت منها قوله:

على قبة المعراج والصخر التي

تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة

ومنزل وحي مقفر العرصات

ويقرر شيخ مؤرخي مصر الإسلامية ما نصه: «فلم ير دمشق أكثر بكاءً من ذلك اليوم»، انظر: المقريزي ، السلوك ، ج١/ق١، ص٢٣٣. أيضًا: ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٦.

(٥٥) إبن شداد، النوادر السلطانية ، ص٧٧، الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية البنداري، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص٢٩٨، جوناثان رايلي سميث، الاستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠-١٣١٠م) ، ت. صبحي الجابي، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٧٧.

(٥٦) المقريزي، السلوك، ج١/ق١، ص٢٥٨، يقول: «كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم».

(57)C. Cahen, " Sur Le Tarikh Salihi d' Ibn Wasil Notes et Extraits", in Studien in Islamic History ans Civilization in Honour of Professor David Ayalon ed,. Sharon, Jerusalem 1986,. P. 512.

(٥٨) أحمد رمضان، العلاقات بين الشرق والغرب (الحروب الصليبية) ، ط. القاهرة ب-ت، ص١٧٩..

(٥٩) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٩٠م، ص١٥٥.